مع الحكومة والدخول الى نفس الدار، بدلاً من ان نقاتلها ونحن، خارج الدار، واقفون في البرد شتاء، و[في] الحر صيفاً»(١٦).

كما اتهمت الصحيفة بالدعوة الى ضرورة رضوخ العرب للامر الواقع، وقبول مزيد من المهاجرين اليهود، والعيش وإيّاهم «كأخوة» تحت الحماية البريطانية وانتدابها. والواقع، ان صاحب «المرآة» قد اتهم بصورة خاطئة بهذا الاتهام.

الّا ان صاحب «مرآة الشرق»، عندما انتخب الوفد الفلسطيني الاول الذي سافر الى لندن في حزيران (يونيو) ١٩٢١، أخذ يطوف في البلاد، محاولاً جمع مضابط موقّع عليها من أهل القرى، بأن الوفد لا يمثّل الأمة. كما دعت صحيفته الجماهير الى المشاركة في انتخابات المجلس التشريعي، في أواخر العام ١٩٢٢، على الرغم من مقاطعة العرب لها، فكانت هذه الاعمال من الامور التي ساعدت في توجيه هذه الاتهامات. الّا ان الصحيفة عادت وأدركت تصميم الجماهير على المقاطعة، فعادت وكتبت انها تؤيد الأمة. كما كانت هي الصحيفة الوحيدة التي خالفت اجماع الأمة بمقاطعة المجلس الاستشاري، الذي عرضته الحكومة على عرب فلسطين العام ١٩٢٣، بعد فشل انتخابات المجلس التشريعي سابقة الذكر. كما انتقدت الصحيفة ادارة المعارف، أواخر العام ١٩٢٢، لاعتمادها على عدد من المدرّسين السوريين والعراقيين والمصريين، واعتبرتهم غرباء عن أهل البلاد؛ كما دعت الى فصل فلسطين عن سوريا، فاتهم بأن له نظرة اقليمية ضيّقة.

ودافع بولس شحادة عن نفسه في هذا المجال، في افتتاحية سنة «المرآة» الثامنة، في ١٨/٩/١٩٢٦، فكتب: «جريدة ' مرآة الشرق ' قائمة على خدمة فلسطين أولاً؛ ثمّ سوريا؛ ثمّ البلاد العربية. وخطّتها، كما يعرف القرّاء، معتدلة. هي من الشعب والى الشعب. فاذا احسن الشعب، قالت له أحسنت؛ وان أساء، قالت له أسأت؛ واذا احتاجت الى المبضع في مداواة بعض عللنا الاجتماعية، فانها لا تتأخّر عن استعماله. نحن لا ندّعي العصمة في كل ما نكتب، لا بدّ اننا اخطأنا مراراً كثيرة؛ لكن العبرة ليست في الخطأ، بل بالعناد والتشبّث بالخطأ؛ ولذلك لم نحجم عن الاقرار بالخطأ كلّما ظهر لنا ذلك؛ وكم نسرّ من القراء الكرام اذا نبّهونا لكل غلطة تبدو لنا، لأن القصد في ما نكتب هو الخدمة العامة. فغايتنا وغايتهم، اذاً، واحدة»(١٧).

ونتيجة لهذه المواقف، فقد أخذت قيادة الحركة الوطنية موقفاً واضحاً، ومحدّداً، من جريدة «مرآة الشرق». وقرّرت اللجنة التنفيذية، في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٣، مقاطعتها. وعندما شعر بولس شحادة بخطأ سياسته ومواقفه في أواخر العام ١٩٢٤، كتب مقالة في صحيفته يلوم فيها نفسه على هذه المواقف، فكتب: «والله وانْ كان هناك هالة سوداء أمام عيني، انْ كان هناك ما يكبت ضميري ويجعلني أنام على شوك من القتاد، هو تلك الصحائف السوداء التي سطّرت في مرآة ' الشرق ' منذ زمن بعيد، في الطعن بفلان والحط من كرامة فلان. تلك الصحائف التي الجأتنا اليها السياسة الغاشمة، وبئست تلك السياسة التي لا تجد لها برهاناً تؤيد فيه نظرياتها، الّا الطعن والقدح والذم في الناس. فان كنت أذكر الصحافة في هذه المقالة، فلست أنسى ' مرآة الشرق ' ، ولا أنسى ما لها من الخطيئات التي كلّما ذكرتها أقرع سنّ الندم، وأقول لا حول ولا قوة الّا بالله، فلا تحمل علينا اذن صحف فلسطين، ولا تقل قد صدق فيه قول الشاعر، انه يعلّم غيره وينسى نفسه. فأنا الوم نفسي اللوم العنيف، أولاً، على كل بادرة بدرت منها في حق أي وطني، وانْ كان ممّن لا يرون رأيي في سياستي»(١٨).

ولقد امتازت «المرآة»، في الفترة الاخيرة من حياتها، بالجرأة والصراحة في القول والثبات على